الضباع

رواية مسلسلة
بقلم
ثروت اباظة

- ٨ -

أشرقت الفرحة على بيت زين العابدين اشراقة لم يكن البيت يتوقعها ، بل كان سيد البيت ابعد الناس عن التفكير فى أن أمله هذا قد يوافيه التحقيق • ومن أين وقد مرت بزواجه السنوات الطوال ومحاولات زوجته لاتقف على طول هـذه السنوات • وما كانت اطاعته لهـا فى الذهاب الى الطبيب الا اذعانا يائسا فما كان يحب ان يتعلق املها بشىء ويقصيها عنه • ومن حيث لا يحتسب اشرق الامل وتحقق وانجبت زوجة له ابنة . نعم ابنة • وماغض من فرحته ان الوليد بنت

وليست ولدا · انما احس الفرحة كاملة لاينتقص منها شيء · حين حمل الفتاة واحس خفق قلبها بين يديه وسمع صراخها العريض احس ان الله قد وهب له حياة ثانية يمسكها بين يديه· بل انه احس انه يمسك الحياة كل الحياة بين يديه ، وحين سرى هذا المعنى فى كيانه وأحس به فى اعماقه يتملكه جميعا احس دموعا عجيبة تطفر الى عينيه كانها فيض فرحة لم يقو جسمه الصغير على ضخامته ان يتسع لها واقسم بينه وبين نفسه ان يهيىء لهذه الفتاة منغدها خيرا ، واقسم بينه وبين نفسه ان يكبح جماح شهواته حتى يبقى من المال مايرد الحاجة عن هذه الطفلة الصغيرة التى ماتزال تسعى فى الهواء على أربع نحو مستقبل جديد وكالعابد قد أتم طقوسه ، أعاد زين العابدين الوليدة الى امها ثم قبل الأم وقبل الوليدة وخرج من الحجرة ثم خرج من البيت ونظر حواليه ، ونظر الى السماء ودارت عيناه ودارتا فوجد الطيور على أعراف الشجر مستقرة الجلسة مطمئنة هادئة شأنها دائما كلما اتخذت من أعراف أشجاره مكانا لها · وفى هذه المرة لم يعجب للطيور مقيمة على أشجاره على رغم الاجنحة التى تتمتع بها ، بل عجب من نفسه كيف كان يريدها ان تظل سابحة فى السماء لاتراح الى عش مطمئنة ولا تستقر الى بيت آمن كأشجاره هذه · وانعم زين العابدين النظر فيما تخفيه اعراف الشجر عن العيون، وأنعم حتى اذا رأى عشين مخبأين بالأوراق انشرح صدره واحس بالسرور والفرح والاطمئنان تشيع فى نفسه جميعا ·

أما فرحة بهية هانم بابنتها فقد كانت توشك أن تصبح جنونا يحتاج الى من يكبح جماحه ، وهى معذورة ، فلم يكن انجابهذه البنيةمجرد انها اصبحت اما وما هذا فى ذاته بقليل ، انما هى بهذه البنية الصغيرة ترد كيد الكائدات من اهل زوجها اللواتى كن يدعين انها عاقر لن ترى لنفسها اطفالا أبد الدهر وكن يسرفن فى الكيد فيغرين زوجها ان يتخذ لنفسه زوجة اخرى ، وان انجابها أيضا انقاذ لها من هذا الفراغ الذى كانت تعانيه فى ايامها الطوال بالقرية ، لقد اصبحت اما ، اصبحت تؤدى الوظيفة الكبرى فى الحياة ، انها تشارك الحياةفى تكوين الناس ، انها ·· هى نفسها اصبحت حياة وتمد بالحياة روحا اخرى ، روحا تحيا وتنبض ولها قلب يخفق وعقل سيفكر ويدان ورجلان ، انها ام·· أم ·· قد لاتعنى هذه الكلمة شيئا لسيدات كثيرات · اما لها هى ·· هى التى سعت الى هذه الامومة بكل دقة من دقات قلبها على مدى السنوات الطوال التى تزوجت فيها ، وهى التى لم تترك سبيلا الى هذه الامومة الا سلكته ·· امالها ·· لها هى فكلمة أم القصيرة الحاسمة هذه تعنى لها كل شيء ، لم تعد تريد من الحياة شيئا آخر لا ·· لاتريد ولدا ، لا تريد الا ان يطيل الله عمر ابنتها هذه ، فانها هى التى منحتها هذا اللقب ، وقد كانت تقول ، ياطالما قالت انها على استعداد ان تتنازل عن احدى عينيها لتنال هذا اللقب ، وقد كانت جادة فيما تقول ولا احد يدرى ان كان منبع الجد فيما تقول ان احدا لن يطلب منها عينا ليعطيها وليدا أم لا ، ولكنها كانت جادة على اية حال ، فكيف بها وقد جاءها الوليد دون ان تتنازل عن عينها · لا ، انها لاتريد من هذه الحياة الا ان تبقى عليها لقبها «ام» دون زيادة وفى غمرة فرحتها امرت ان يشترى

خروف وثلاثة من الديكة الروميـــة ، وخمســة أزواج من الفــراخ وعشرة أزواج من الحمـــام وان ترســـل جميعهـــا الى الدكتـــور نجيب محفوظ بالقاهرة • ولا يعنيها ما يصنعه الدكتور بهذه الهدية ولا كيف سيحافظ عليهـا انما كل مايعنيها ان ترسل اليه هـذا الشكر من الاحياء • وقد ظلت تقول فى نفسها « لو استطعت ان ارسل له الدنيا جميعا لارسلتها وظللت مقصرة » •

— ٩ —

اتم حسين تعليمه فى الـكتاب وختم القرآن حفظا ، وقد كان يحب أن يترنم بما حفظ ، وكان يحلو للحـــاج والى ان يطلب اليه من حين الى آخر ان يرتل بعض اجزاء القرآن فكان الفتى يســارع الى الطاعة سعيدا غاية الســـعادة انه يستطيع ان يلبى طلبا لهـذا الرجل • وكان فى قراءته خاشعا تدمع عيناه معا فى صمت وروحانية • كانت هـــذه الجلسات التى يجلس فيها حسين مرتلا القرآن فى غير تجويد امام الحاج والى هى اجمل لحظات حيـــاته ، كان يحس انه يستطيع ان يكون مفيدا ، وانه يستطيع ان يمتع هذا الرجل الذى يعوله فى غير ضيق به بل انه يوســـع امامه افاق المســـتقبل فى اقبـالة اب وفرحة كريم وكانت السن قد تقـــدمت بحســـين فاصبح يعرف تمام المعرفة موقفـــه من الحاج والى واصبح يشكر هـــذا الموقف فى نفسه اعمق الشكر واصدقه فهـــو دائما حائر بهذا الشكر •

ماذا بيدى ان افعل لأرد فضـــل هذا الرجل ، وماذا بيدى ان افعل لأرد فضل الحاجة ، ماذا فعلت لاتال هـــذا الحنان منهما • سيد ابو عبد الكريم يعيش مـــع امه وابيه فهمـــا يضربانه فى كل يوم ليترك الكتاب ويذهب الى الغيط ، الى اى مصير كنت القى لو اننى عشت مع جدى وجدتى ، فلاح يصبح بالطعـام لجده ويمسى بالماشية يعـــود بهـــا الى البيت •

وانظر الى نفسى الآن ، فتى يحيط به الاحترام ان مشى ، فهو لايمشى فردا انما يحمل كلام الله ولكن أأحمـــل كلام الله ولا أفهم معناه ، الا افهم معناه انا • هيه •• أأخادع نفسى ايضا لاذهبن من فورى الى الحاج سالم فخر الدين فآخذ عليـــه التفسير فقد درسه فى الازهر الشريف وليس فى البلد من يفقهنى فيه مثلمـــا يستطيع هو ان يفعل • ولكن أتطول بى هذه الدراسة ومالى لا اذهب مباشرة الى الازهر الشريف • لقد ختمت القرآن ، وحسب الحاج والى ما انفقه على من طعام وملبس ومأوى حتى ختمت القـــرآن • اترانى اريد الذهاب الى الازهر لاخفف المؤونة عن كاهل الرجل الطيب ام انى ازين لنفسى اننى عفيف وانا اتحـــرق شوقا للذهاب الى الازهر لألبس العمامة والجبة والقفطـــان • واروح فى البلد واعدو فلا والله الشيخ سالم يبـــالغ ما ابلغه من الفخامة والمهابة • والبنت هنية معى ، لتأتين صاغرة تقبل يدى وطرف أم عبد الحميد التى لم ترض ان تلعب جبتى • فأى مكانة فى العالم ارفع من مكانتى ، لتكونن الجبـــة خضراء فاقع لونها يسر الناظرين ، وليكونن القفطان زيتونيـــا •• ايشترى لى الحاج والى ما اطلب •• ايقبل اولا ان اذهب الى الازهر •• ســـاذهب فان حبى للحاج والى لن يجعلنى اغير مســـتقبلى كله من أجله • اننى على اتم استعداد ان اقدم له حياتى ، اما مستقبلى فهو لى وحدى مادام لايريد حياتى • مادمت ســـاعيش فانا

الذى سأصنع مستقبلى بيدى ولن يصنعه لى أحد . اراه منذ اليوم يتكلم عنى انى سأصير محاميا وعن محمد انه سيصير طبيبا ومحمد لايزال فى الخامسة يتلقى اول دروس الكتاب ولكن الحاج يرسم المستقبل لكلينا.. لن يكون هذا . لا.. لن يكون . الا يقولون ان الثورة قد نشبت فى مصر من اجل الحرية .. ما الحرية ان لم تكن حريتى فى اختيار طريق حياتى . وطريق حياتى هو الازهر فانى احب ان اسير لابسا الجبة والقفطان . الجبة الخضراء والقفطان الزيتونى اللون ويقبل الرجال .. والنساء .. نعم وخاصة النساء وعلى رأسهن هنية يدى وأرى نفسى عظيما فى القرية يحيط بى التوقير والاحترام من كل جانب .. بل انى أرى المشايخ فى البندر أيضا يحيط بهم .

وصحا حسين من خواطره واحلامه على صدمة عنيفة من حمار يحمل حملا عاليا من البرسيم ويسير خلفه طفل صغير لا يستطيع ان يرى الطريق فالطفل قصير وحمل البرسيم مرتفع شاهق فى الهواء . واغتاظ حسين وهو يرى نفسه مصدوما من حمار ولم يستطع ان يكتم غيظه فما أسرع مادار حول الحمار وامسك بالطفل .

ـ ولد .. أانت الحمار أم هو .

ـ دعنى .. اترك ملابسى .

ـ اتترك الحمار يقودك يا ابن الحمار.

ـ لا شأن لك بى .

ـ كيف ؟ أتترك حمارك يصدم خلق الله وتقول لا شأن لك بى .. طيب والله لاذهب بك الى ابيك ابن من انت ؟

ـ دعنى .. اترك ملابسى .. لاشأن لك بى .

وتجمع حول حسين والطفل نفر من القرية وراحوا ينحون على حسين باللوم حينا او قد ينحو بعض منهم باللوم على الطفل . وفجأة تقدم الى ميدان المعركة رجل طويل القامة عريض الكتفين وأمسك بتلابيب حسين .

ـ ماذا يا ابن شحاته .. ألم تجد الا ابنى لتهينه ؟

ـ لقد ترك الحمار يصدمنى .

ـ وماله يا اخى .. اما عجيبه .. ألم يبق الا انت يامن تعيش عاله حتى تتعدى على طفل صغير .

والجمت الكلمة حسين فأطال النظر الى الرجل ولم يستطع ان يمنع عينه الاخرى ان ترسل دمعة ، ثم القى برأسه الى الارض واولى الجمع ظهره ومشى .

وصمت الرجل العريض المنكبين كقاتل ادرك بشاعة جريمته بعد أن ارتكبها ، ونظر حواليه فرأى فى عيون الناس جريمته مجسمة فى نظرات المه فما استطاع مكثا ، وخف خطاه وراء حسين .

ـ يا حسين .. يا حسين .

ولم يقف حسين ، فعاد الرجل ينادى .

ـ يا شيخ حسين .

واحس حسين حلاوة كلمة « شيخ » فتلكأ هونا وادركه الرجل .

ـ أزعلت منى ؟ .

وصمت حسين .

ـ حقك على.. هات راسك لابوسها.

ولم يدر حسين من امر نفسه الا ان دمعاته الصامتة اصبحت نشجيا عاليا وواصل الرجل كلامه :

ـ ان الله غفور رحيم ياشيخ حسين .. يارجل انت حامل كلام الله فاغفر لى .

وربت كتفه ثم احتواه فى حضنه

الواسع وتجمع الناس الذين شـــهدوا موقفهما الاول وراحوا يجاملون حسـين ويرجونه الا يحمل على الرجـل غلظة لسانه ، وتهافت النشيج من حســـين واقترب من الصمت وقال الرجل العريض المنكبين :

ـ لا تذكر ماقلته للحاج والى فانه لو عرف مـــا قلت لم يعفنى من الـــزجر والتانيب ·· اصفح عنى ياشيخ حسين واقسم بالله لا أعود لها أبدا ·

ثم نادى بأعلى صوته على الطفل الذى كان يسير خلف الحمار فجاء فقال له :

ـ قبل يد الشـــيخ حسين ياولد واعتذر له ·

وقال الطفل :

ـ يا آبا انا لم اره ·

وزجره ابوه فى عنف ·

ـ قبل يده قلت لك ·

وتكلم حسين أخيرا مغمغما :

ـ استغفر الله ·· لا لزوم لهذا ·

وقال الرجل :

ـ اجعله يقبل يدك لينال بركتك·· انت حامل كتاب الله ومبروك ·· اجعله يقبل يدك من اجل خاطرى ·· اعطـه يدك حتى اعرف انك صفحت عنى ·

وامسك الطفل يد حسين فقبلها فى سرعة قبل ان ينتبـــه حسين ، وأحس حسين رضى فى نفسه وقال :

ـ استغفر الله العظيم ، يا سيدى انا متشكر على كل حال ·· سلام عليـكم ورد الجميع السلام فى همهمات وانصرف حسين وقد اصبحت رغبته فى ان يصبح شيخا أعمق فى نفسه وابعد غورا ·

لم يذهب حسين الى الحاج والى وانما قصد الى الحاج سالم فخر الدين ، وهو رجل قطع من مراحل التعليم فى الازهر شوطا ليس بالبعيد وانما كان ما تعلمه كافيا لان يجعل منه مفتى القرية ، فاليه يقصد الناس ليفسر لهم ماغمض عليهم من شؤون دنياهم ودينهم ، وقد كانت الدنيا عندهم تختلط بالدين فى اغلب الامور ، وقد كان الحاج سالم ذكيا يفصل فى الامور بحدة ذكائه اكثر مما يفصل فيها بعلمه ، وكان جميل السمت ذولحية مهيبة وضاح الجبين تتوسط جبهته تلك العلامة السمراء التى تختلف سمرتهـــا بين الدكنه والخفة حسب كثرة صـــلاة صاحبها او قلة صلاته ·· تلك العلامة التى تأخذ مكانها على جبهـــة المصلين جميعهم لاتفرق بين الصـــالح منهم والمرائى وكان الحاج ســـالم الى جانب مكانته الدينية ذا عمل آخر بالقرية فقد كانت الودائع جميعها تأخذ طريقها اليه فيحفظها لاصحابها حتى اذا احتـــاجوا اليها وتلمسوها عنـــده وجدوها كما اودعوها اياه بربطتها كما يحلو لهم ان يقولوا ·

كان الشيخ يجلس منفردا حين دخـل اليه حسين ·

ـ السلام عليكم ياعم الحاج ·

ـ وعليكم السلام يا ابنى ورحمة الله وبركاته اهلا وسهلا ·

ـ انا حسين بن شحاته ابو اسماعيل·

ـ اهلا وسهلا ·· رحم الله اباك ·· كان رجلا طيبا ·

ـ اريد أن أذهب الى الازهـــر ياعم الشيخ ·

وتجهم وجه الشيخ قليلا ثم قال :

ـ وماذا بعد ذهابك الى الازهر ؟

ـ وماذا بعد ياعم الشيخ ؟

ـ اى ماذا تنوى ان تفعل ؟

ـ اريد ان احصل على شهادة العالمية·

ـ العالمية ؟!

وسكت الشيخ قليلا · اذن فسياتى

له منـــافس فى القرية · نعم ان امامه سنوات طوالا حتى ينال الشهادة وربما مت انا فى هذه الفترة ، ولكن ماذا يكون العمل لو اننى عشت ·· أيأتى هـــذا الطفل وقد حصل على شهادة العـــالمية واصبح انا نسيا فى هذه البلد منسيا ·

ـ وماذا تنوى ان تفعل اذا اخـــذت العالمية ان شاء الله ؟

ـ اريد ·· اريد ·

وسكت فقد اصبح لايدرى مايقول·· فما كانت آماله واحلامه بصالحة ان تلقى على مسامع الشـــيخ الجليل ·· وقال الشيخ :

ـ اتنوى بعدها ان تقيم هنا معنا أم تأخذ طريقك فى القاهرة بعد ذلك ؟

وقال حسين مترددا :

ـ كل ما اريده الآن ان احصل عـلى العالمية ·

ـ يا بنى انها شهادة صعبة ·

ـ اعرف ذلك ·

ـ وقد سقط الكثيرون وهم يحاولون الحصول عليها ·

ـ انا اريـــد ان افهم كلام الله الذى احفظه ولا افهمه واطلق الشيخ تنهيدة وقال :

ـ هل تصدق ان احدا قد فهم كلام الله كله ·

ـ لابد انه مفهوم يا سيدنا ولـكننى انا عاجز عن فهمه ·· فأنت مثلا تفسره بكلام مفهوم واضـــح ·· وأنا أريد أن أفهمه كما تفهمه أنت ·

ـ يابنى فهمت شـــيئا وغابت عنى أشياء ·

ـ لا بأس ·· انما اريد ان افهمه ·

ـ ولماذا ؟

وسكت حسين قليلا ثم قال :

ـ لماذا اريد ان افهم كلام الله ؟

ـ نعم لماذا ·

ـ لاعرف دينى ·

ـ الا تعرفه ·· الحـلال بين والحرام بين ·

ـ نعم ولكنى اريد ان افهمه جميعـه وان أدرس ديني على الاساتذة الـــكبار فى الازهر ·· لانى ·· لانى ·

ـ لانك تريد ان تشرحه لغيرك ·

ـ نعم ولانى أيضا ·

وسكت حســـين لحظات حتى قال الشيخ :

ـ ولماذا أيضا ؟

ـ ولانى أجد حلاوةفى كلام الله لاادرى اسبابها ·

ـ لعلك اذا أصبحت وكلام اللهحرفتك تفقد هذا الشعور بالحلاوة ·

ـ افقدت انت هذا الشعور يامولانا·

وبهت الشيخ ثم مالبث ان قالملهوفا وكأنه يدفع عن نفسه تهمة كفر والحاد ·

ـ لا ·· لا ابدا ··استغفر الله العظيم ·· استغفر الله العظيم ·· انه لا تغنى الدنيا عن الآخرة ·· لا ·· لاتغنى الدنيا عن الآخرة ·· ماذا تريدنى ان افعل لك يابنى ·

ـ اريد منك توصـــية لاصـــدقائك هناك ·

ـ اكتب لك ما تريد ان شاء الله ·

ـ بارك الله لنا فيك ياعم ·

ـ بارك الله خطاك يا ابنى ·· مـــع السلامة ·

ـ ١٠ ـ

كان حسين جالسا فى بهو البيت الى اخيه محمد ، وقد راح محمد يتلو السور القصار وحسين يستمع اليه ويصـحح خطأه من حين الى آخر ، بينمـــا كانت الحاجة بمبه تجلس الى الاريكة التى تحب الجلوس اليها وامامها معدات القهوة وقد

ارتاحت نفسها لمنظر الولدين تكاد تحس انهما ابناها ·· نعم هما ابناى ·· فاما الصغير فامه لم تره ولم يرها واما الكبير فانه ان ذكر امه فكما يذكر حلما بددته اليقظة · هما ابناى وان لم الدهما ·· وقد كان الصبى والفتى فى شغل عما تفكر فيه الحاجة فاما محمد فمشغول بهذه الصور القصار التى ان لم يحفظها انهالت عليه فى صبيحة اليوم التالى عصا الشيخ واما الفتى فباحلامه التى يريد ان يسلك اليها السبيل ويخشى ان يعوقه عنها رغبة الحاج العنيفة فى أن يعلمه تعليما مدنيا ·· فقد سمعه يقول للحاجة انه يريده ان يقصد به الى المدرسة الابتدائية فى المدينة آملا ان يقبلوه فى السنة الثالثةوالا ففى السنة الثانية · ولم يستطع أن يهاجم الشيخ فى آماله وهو يبنيها له فصبر ان تلوح فرصة اخرى فيكشف عن خوالج امله هو التى امتزجت بنفسه فهى تملأ عليه جوانب حياته جميعا ·

وانتهى محمد من حفظ اللوح وخرج الى رفاق ملعبه وظل حسين مكانه وتطلع الى الحاجة يريد ان يقول ولايقول فلايجد ما يفعله الا ان يمسح تلك الدمعة التى تلازم عينه ورأته الحاجة وهو يزيل دمعته فاحست خالجة عطف نحوه ورأت على شفتيه الكلمات وأرادت أن تصمت حتى يبين ولكنها مالبثت ان أشفقت عليه فقالت :

ـ هيه يا حسين ·· ماذا تريد ؟

واندهش حسين ولكنه انتهز الفرصة فقال :

ـ اريد ان اذهب الى الازهر الشريف يا ام الحاجة ·

وقالت الحاجة بمبه :

ـ ونعم يا ابنى ·· تذهب ان شاء الله ·

ـ اخاف ان يرفض ابا الحاج ·

ـ لماذا ؟

ـ انا اعرف انه يريدنى ان ··

ودخل الحاج والى قبل ان يكمل حسين جملته فصمت حسين وقام يستقبل الحاج ورحبت الحاجة بزوجها الذى اتخذ مجلسه على الاريكة والتفتت الحاجة الى حسين ثم نظرت الى الحاج واحس الحاج ان بين الاثنين حديثا يريد ان يرقى الى مسامعه · بل احس ان الحاجة تريد ان ترجوه فى شأن يهم حسين ، وقد كان يحب ان ترجوه الحاجة فى امور حسين حتى يشعر بالراحة وهو يجيب مطالبها · ولكن الحاج والى تظاهر بأنه لم يفهم شيئا فأخرج سبحته وراح يساقط حباتها مسبحا فى تمتمة وترقب ·

وقالت الحاجة :

ـ لنا عندك رجاء ياحاج ·

ـ قوليه ياحاجة ·

ـ حسين يريد ان يذهب الى الازهر ·

وجمع الحاج سبحته فى حركة سريعة وقال :

ـ ماذا ؟

وقالت الحاجة :

ـ ولماذا لا ياحاج ؟

وتجاهل الحاج تساؤلها والتفت الى حسين ·

ـ اهذا ما تريد ياحسين ؟

وأطرق حسين وهو يقول :

ـ ان شئت يا ابا الحاج ·

ـ لماذا ؟

ـ اريد ان اتفقه فى القرآن ·

ـ اهذا حقا ما تريد ·

ـ نعم ·

ـ ولكن ولكن ··

وصمت الحاج والقى نظرة الى امامه وراح يفكر .. ايهما افضل لهذا الفتى من يعلم الغيب .. وأحس كأن ضبابا كثيفا يتكون شيئا فشيئا امام عينيه المتطلعة الى المستقبل ولم يفق الحاج من سرحته الا على يد الحاجة وهى تربت ذراعه .

ـ وماذا فى ان يتعلم الفتى الدين ؟

ونظر الحاج الى حسين قائلا :

ـ اخشى ياحسين ان تكون قد اخترت الازهر لان التعليم فيه لا يكلف مالا .

ـ لا .. لا .. لا ابدا يا ابا الحاج .

ـ ان امنيتى ان تكون محاميا أو طبيبا .. فانى اعتقد ان مصر فى أشد الحاجة الى المحامين حتى يدافعوا عن حقوقها أو الاطباء حتى يشفوا المرضى بها وهم كثير .. اننى فعلا ارجو ان تكون واحدا من هذين .

وقال حسين وقد نكس رأسه :

ـ وانا لا اريد من الدنيا الا ان انفذ رغباتك جميعا ولكنى احس اننى لن اوفق الا فى الازهر الشريف .

وصمت الحاج والى قليلا مداعبا حبات مسبحته ثم قال :

ـ يا ابنى انا لا أحب ان املى عليك ما تفعل لتكن مشيئة الله نافذة .. تستطيع ان تجهز نفسك لتذهب الى الازهر باذن الله واشرق وجه حسين وانبسطت اسارير الحاجة واكمل الحاج والى تسبيحه وان كان الضباب مايزال جاثما امام ناظريه .

ـ ١١ ـ

كان زين العابدين بك مسافرا الى القاهرة وقد انتهز الحاج والى الفرصة فرغب اليه ان يصحب حسين ، ويمهد له السبيل فى الاقامة بالقاهرة التى لم يرها الفتى قبل ذلك أبدا .

وهكذا هبط حسين القاهرة لاول مرة فى رفقة زين العابدين بك ولو لم يكن فى هذه الرفقة لعاد مرة اخرى طريقه الى القرية وقد استقر فى نفسه ان القاهرة جميعها ترتحل ، والا فما هذا الزحام وهذه الضجة ، وهؤلاء الناس، ومالهم جميعا ملهوفين متسارعين تتصادم أبديهم أو يتصادمون جميعا بعضهم ببعض كأنهم مطالب الحياة المتعارضة المتضاربة . أهكذا المدينة . يعجل اهلها الى مقاصدهم فى هذه السرعة اللاهفة ، وهذا الجد الصارم ، مالهم يمر بعضهم ببعض ، أو يحتك بعضهم ببعض فلاتحية ولا سلام ولا حتى اعتذار .

مشدوه حسين مما يرى فهو ذاهل عما يحمله من اثاث ومؤونة ، يتولى عنه زين العابدين بك الانفاق على الحمالين ، وقد كان الاثاث قليلا غاية القلة وكانت المؤونة كثيرة غاية الكثرة فالاثاث سرير وصندوق كبير ، والمؤونة سلال متكاثرة انسكبت عليه من حنان الحاجة بمبة ومن شعور جده وجدته بما عليهما من واجب نحوه .

وفى غمرة الدهش والذهول وجد حسين نفسه مسوقا مع الموجات المسوقة وقد امسكت بذراعه يد زين العابدين لاتفلته واحس لحظة باليد ، وخيل اليه ـ وان كان لايدرى لماذا ـ ان يدا ماتمسك هؤلاء السائرين جميعا فهم قطيع سائر يلتمس المرعى أو يلتمس المأمن .

وخرج حسين الى ساحة المحطة الخارجية .. ان ثمة متسعا كسعة الريف ولكن العربات الكارو والحنطور

والسيارات والناس تعدو على هذه السعة فهي زحام · ووجد نفسه في عربة حنطور بجانب زين العابدين بك وكاد ان ينسى ما يحمله ولكنه نظر خلفه فوجد كل ما حملته اياه القرية قد وضع في عربة حنطور اخرى فلم يملأ من فراغها الا قليلا ·· نعم الا قليلا ، فما أقل ما حمل من القرية من اثاث وما أكثر ما حمل من القرية في نفسه ·

وراحت العربة تسعى بهما في شوارع القاهرة ، الحصان يسير وقد وضعت حول عينيه من الجانبين قطعتان من الجلد حتى لا يبصر الا مايريد له قائده أن يبصر ، فهو يمشي بالعربة ولا يملك ان يبصر الا ماتتركه له قطعتا الجلد فالطريق امامه ليس الا بقية مما تترك له الغمامة وصاحبه مع ذلك لا يعفيه من الضرب فهو يسوطه من حين الى آخر ، ونظر حسين الى الحصان ·· لقد عرف الحصان طريقه وان تكن غمامة حول عينيه ، وان يكن عرف صاحبه بسوطه الا انه عرف طريقه. ابستطيع هو ان يعرف طريقه ·· اتراه يعرف طريقه ، انه تائه في هذا الزحام وفي هذه الشوارع الواسعة وعي امسك بذراع زين العابدين ، وتمنى لو يبقى معه لا يتركه ، ولكن هيهات ، فانه ليعلم انه ما هو الا بعض الوقت حتى يتركه زين العابدين فردا يواجه هذه القاهرة جميعا بكل ما فيها من ناس وخيل وعربات وعلم ·

البيوت الفخمة الضخمة يتضاءل بجانبها اكبر بيت في القرية والمآذن الفارعة سامقة الى السماء فالاذان منها اذان من السماء دعوة الى الارض ان تشرئب الى الله ، هدى في السبيل المعتم ، وضياء يبدد الظلمات ، وصفاء يدحر العتمة الكثيفة من الرغبات اللاهثة والمطالب المتزاحمة · والناس يمضون في سبلهم لا يعرفون للمآن عينا ، ولا يعنيهم الا ما يقصدون اليه وحسين يزداد ذهولا على ذهول وزين العابدين يتفزز على مقعده في العربة يريد ان ينتهي من هذه المهمة لينصرف الى قاهرته التي لايعرف غيرها هناك في البار ومع النسوة التي يستبدل الواحدة منهن بالاخرى ضاربا بوعده لابنته وهي بعد وليدة عرض الافق والعربة يسعى بها الحصان والسوط يسوطه كلما جرى بضع خطوات في أوقات تكاد تكاد تكون منتظمة ، فما فعل شيئا يساط من اجله وانما هي رغبة سائقه وحبه ان يسوط شيئا اي شيء دون ان تدعو لهذا حاجة من تلكؤ ، أو عصيان لامر ·

وفجأة انتقلت العربة من الشوارع الفسيحة العريضة الى اخرى ضيقة مازالت تضيق حتى اصبحت العربة لاتسير الا بشق الانفس فهي تزحف زحفا وتنهال السياط على الحصان ويتدافع السباب الى المارة فما تجدي السياط ولا يفلح السباب ، والتفت السائق الى زين العابدين يسأله عما يريد من مناطق الدراسة ، وقال زين العابرين :

ـ اريد ان اجد بيتا للشيخ ·

وتنبه حسين فجأة انه شيخ ، وانه يلبس العمامة والجبة الخضراء والقفطان الزيتوني ، لقد اذهلته القاهرة عن نفسه وعما يلبس وقال سائق العربة :

ـ اعرف بيتا هنا به حجرة خالية على سطح ·· اتريد اكثر من حجرة يامولانا·

وابتهج حسين من كلمة مولانا وقبل ان يجيب كان زين العابدين يقول :

ـ واقل من عرفه ان امكن ·· اين هى ؟

وقال السائق :

ـ نترك العربتين هنا ونذهب لنتفق·

ـ وقال زين العابدين :

ـ لماذا ·· الا نستطيع ان نذهب بالعربة الى هناك ؟

ـ البيت فى زقاق ضيق ·

وقال زين العابدين :

ـ وهل البيت بعيد ؟

ـ لا ·· انه هنا على بعد خطوتين ·

ونزل زين العابدين ولحق به حسين وتقدمهما السائق بعد ان اوصى زميله الآخر ان يولى العربة عينا يقظة ·

ومشى الركب ، لم يكن البيت على بعد خطوتين ، لا ولا ثلاثة ولا عشرة لا ولا تصلح الخطوات وحدات لقياس المسافة التى يبعدها البيت عن المكان الذى تركوا فيه العربات ، لقد مشوا مايقرب من كيلو ونصف كيلو وتوقفوا · وطلب اليهم السائق ان ينتظروا لحظات ريثما يلقى صاحب المنزل · وصعد ثم نزل ·· ان صاحب المنزل فى دكانه ·· واين الدكان ·· على بعد خطوتين أيضا ·· وقال زين العابدين :

ـ ألا ترى الحجرة اولا ، حتى اذا اعجبتنا نتفق ·

وصعد السائق ثم مالبث ان قال تفضلوا ·· كان المنزل مكونا من ثلاثة طوابق ، ولكنها طوابق مرتفعة فدرجات السلم كثيرة ترتفع كل درجة عن زميلتها ارتفاعا مضنيا ،وهكذا راح زين العابدين بك ينتزع نفسه انتزاعا ليبلغ حجرة السطح ·· حتى اذا بلغ الركب الطابق الاخير الذى لايعلوه الا السطح لاحظ زين العابدين كما لاحظ حسين ان الباب منفرج انفراجة هينة تسمح للعين ان تتلصص من الداخل الى الخارج ولاتسمح للعيون الاخرى ان تتسلل من الخارج الى الداخل · التفت زين العابدين الى حسين والتفت حسين الى زين العابدين ولكن زين العابدين كان يلهث ان يقول شيئا اذا اراد ان يقول ، وكان حسين يفكر افكارا غير محددة ولا واضحة حول هذه الانفراجة التى طالعتهم من الباب الذى لا يعلوه الا السطح ·

وقال السائق :

ـ لقد القت لى زوجة المعلم بالمفتاح من تحت الباب فانا لااعرف اين الغرفة واين الحمام ولكنى سأجدها على كل حال ·

وتقدم بمفتاحه يعالج الابواب الثلاثة على السطح حتى اذا انصاع له احدها فتحه على مصراعيه وهو يقول :

ـ بسم الله ما شاء الله ·· غرفة تشرح الصدر ·· وهاهوذا الحمام امامها مباشرة ·

ـ وقال زين العابدين مشيرا الى الباب الثالث :

ـ وما هذه ؟

ـ هذه ـ والله اعلم غرفة اصحاب البيت التى يغسلون بها غسيلهم بطبيعة الحال سيكون الغسيل فى الصباح ومولانا سيكون فى الازهر فلا شأن له بهم ·

كان التعب قد بلغ من زين العابدين مبلغا لايسمح له بالمناقشة فهو يسأل حسين فى سرعة :

ـ اتعجبك الغرفة ياحسين ؟

ولم يجد حسين سببا في الا تعجبه الغرفة فهو يقول :

ـ نعم ٠

وبعد ساعة اخرى كان حسين مستلقيا على السرير في غرفته وحيدا في القاهرة على سطح اول بيت دخله غير بيوت قريته ، ودمعة عينه منسكبة لم يزد عليها الا دمعة ارسلتها عينه الاخرى احس انها نريحه وهي تأخذ سبيلها على خده وان كانت اسباب بكائه متخفية في اعماق نفسه لايدرى حقائقها ولا اسبابها وفي هدوء مد يده الى صدره وتحسس الخطاب الكامن هناك حتى اذا تأكد من وجوده رفع يده الى عينيه يمسح عنهما الدموع ٠٠ ان قريته لم تتركه وحيدا ٠ فها هوذا خطاب الحاج سالم فخر الدين الذى يوصى فيه رفيق دراسته الشيخ صالح الاشمونى بحسين خيرا في جيبه يؤنس وحدته ويجعله يؤمل انه واجد في القاهرة انسانا قد يوليه بعض عطف أو بعض اهتمام وحسب الغريب في غربته بعض عطف أو بعض اهتمام ٠

ـ ١٢ ـ

احس الشيخ والى حين سافر حسين انه لم يحقق فيه الامل الذى كان ينشده من تعليمه وصبر نفسه انه على كل حال ليس ابنه ، وازداد عزما ان يعلم ابنه التعليم الذى كان يريده له وكأنما اراد ان يستعجل السنين فهو يفكر ان يدخل محمد منذ سنه هذه الباكرة الى المدارس الاميرية وهم ان يفعل ولكنه مالبث ان تذكر ان سنه لاتسمح بذلك فانتظر على كره منه عازما الا يبدأ العام الدراسى الجديد الا ومحمد تلميذ في المدرسة الاميرية ٠

وكان محمد يذهب الى الكتاب في انتظام وكان يخاف عصا الشيخ التى يتناول بها المهملين من لداته فهو حريص على ان يحفظ اللوح فيجيد حفظه الا انه بعد ان سافر حسين وانفرد به اللوح اصبح الحفظ بالنسبة اليه عملية شاقة يبذل فيها ساعات طويلة كانت تحلو بفضل حسين ليلعب فيها الكحشة أو ما يحلو له ولرفاق ملعبه من العاب ٠

فهو الآن لايفرغ من حفظ اللوح الا والشمس قد مالت للغروب فهو لايصيب من اللعب الا حظا يسيرا ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن حفظ اللوح مهما يفقد من ساعات اللعب فلعب قليل مع تجنب لالام العصا خير من لعب كثير يعقبه هم كثير ٠

وكان محمد يذهب في بعض الاحيان الى بيت زين العابدين ليلعب هناك مع ابنته آمال وكان يصحبهما في الملعب اطفال آخرون من بينهم رشاد ابو عبد الباقى ٠ وكان رشاد يلاحظ اهتمام آمال بمحمد ويحاول جهده ان يستثير اهتمامها به فقد كان يحس فيها شيئا مختلفا عن الفتيات الأخريات فملبسها غير ملبسهن وطريقة كلامها غير طريقتهن فهو يحس ان ثمة فارقا بينها وبين بنات القرية وان كان لايدرى سبب هذا الفارق ولا حقيقته وكان يرى في ذهابهم اليها دون ان تذهب هى يوما الى ملعبهم في جرن القرية فضلا لها لا يمكن التغاضى عنه ٠

ولم يكن يدرى السبب في ان الصلة التى تصلها بمحمد اقوى من جميع الصلات الاخرى التى تصلها بأطفال القرية فما كان يعلم ان الحاجة بمبة كثيرا ماتزور بهية هانم مصطحبة معها محمد في زياراتها ، فآمال معذورة ان تأنس الى

محمد فهو وحده الذى يكثر من زيارتها. ولكن رشاد لايهمه من هذه الاسباب جميعا الا ان محمد اقرب الى آمال منه وهو لا يقبل هذا . فهو يتحين الفرص لينال من محمد نيلا يصيب منزلته عند امال وقد واتته الفرصة من قريب .

كانوا يلعبون امام بيت زين العابدين حين جاءت الحاجة لتزور بهية هانم،وكان الليل قد اوشك ان يخيم على القريةفرأت الحاجة بمبه ان ينتهى لعب الاطفال ، فهى تنادى محمد وامال وتصعد بهما الى الطابق الاعلى . ويضيق رشاد بهذا ضيقا شديدا ، فان امه لاتكثر من زيارة بهية هانم كما تفعل الحاجة ، ولايستطيع هو ان يصعد وحده فما له منرفيقيجعل صعوده طبيعيا ولكنه يأبى ان ينصرف مع الاطفال الآخرين الذين انصرفوا فهو يمكث مراقبا لباب البيت منتظرا وانكان لايدرى لماذا ـ خروج الحاجة بمبه ومحمد وفى الطابق الاعلى يكون اجهاد اللعب قد اخذ من محمد مأخذه فما هى الا ان يريح جسمه الى الكرسى حتى يهاجم النوم عينيه فيستسلم له فى اذعان ودعة والحاجة بمبه مشغولة عنه بالحديث الى بهية هانم حتى اذا حان موعد الانصراف نظرت الى محمد فى كرسيه فوجدته فى نومته العميقة وتحاول ان توقظه ولكن بهية هانم تلح عليها ان تتركه يقضى الليل عندهم وتعدها انها ستوقظه فى الصباح ليذهب الى الكتاب وتشفق الحاجة بمبة على محمد وتتركه وتأخذ سبيلها الى الخارج .

وما تكاد تغادر باب زين العابدينحتى ينبت رشاد من ثنايا الظلام .

ـ اين محمد ياخالتى الحاجة ؟

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، ماذا تفعل هنا يارشاد ؟

ـ لا شىء .. كنت هنا .. اين محمد ؟

ـ نام فتركته عند الست حتى الصباح .

وفى الصباح ايقظت بهية هانم محمد وقدمت اليه افطارا كريما وتركته ينطلق الى الكتاب ، ومر محمد بمنزله فأخذ اللوح وتوجه الى الكتاب . وهناك كان رشاد قد دبر مؤامرته فقد لقيه الشيخ فى غضبة عنيفة .

ـ اين بت الليلة يامحمد ؟

ـ فى بيت زين العابدين بك .

ولم يزد فقد امر به الشيخ فأمسك غلامان بقدميه وانهال الشيخ عليهماضربا مبرحا .

وبينما كان الحاج والى يختم صلاة الضحى فوجىء بضجة على الباب فنظر من شباكه فوجد محمد على حمار يبكى بكاء مرا فخف اليه فوجدقدميه متورمتين لايستطيع ان يلمس بهما الارض واحتمل الشيخ ابنه وقلبه ينفطرلهفا عليه وما ان اودعه السرير حتى قصد الى الشيخ فى كتابه .

ـ لماذا هذا ياعم الشيخ عبد العظيم؟

ـ الم ترسل لى رشاد ان اضربه لانه بات ليلته خارج المنزل ؟

ـ لا .. لم افعل .. وان كنت فعلت اهكذا يضرب الاطفال .. لن يعود محمد الى الكتاب ثانية ياشيخ عبد العظيم .

وخرج الحاج والى وقد ازداد اصراره ان يتوجه محمد منذ الآن الى التعليم المدرسى

فهو يقصد الى زين العابدين ويتفق معه على ان يشارك محمد آمال فى الدراسة المنزلية حتى يبدأ العام الدراسى الجديد فيذهب الى مدرسة البندر ٠

اما رشاد فلم يكفه ما وقع عليه من عقاب الشيخ الذى حرم مما كان يفيده من تعليم محمد بل زاد الطين بلة ان محمد اصبح رفيق آمال فى الدرس ايضا لا فى الملعب وحده ٠

- ١٣ -

اشترى الحاج والى عربة وحصانا حتى ييسر لمحمد ان يذهب الى المدرسة فى الصباح الباكر ، وقد كان يشفق على الطفل الصغير وهو يصحو معه فى الفجر ثم يخرج الى برد الشتاء القارس ليقطع ثمانية كيلو مترات الى المدرسة ٠ وكان الحاج والى كلما تساءل ٠٠اتساوى الحياة هذا الجهد نبتت امام عينيه تلك القطعة من الضباب جوابا على تساؤله فيزداد على حيرته حيرة ولا يملك الا ان يوقظ وليده فى فجر اليوم التالى فيصليان الفجر معا ثم ينفتل الطفل الى مدرسته لايدرى مايكابده ابوه من الم لخروجه هذا ومن تساؤل وحيرة ٠٠ الهذا كنت اتمنى لى ولدا ٠٠ الهذا ضحت امه بحياتها وضحت زوجتى بكرامتها ٠٠ انجىء بهم لنملأ حياتهم تعبا ونملأحياتنا شقاقا ٠

وماذا لقى محمد بعد من الحياة ، وماذا افعل حين يوغل فيها وتلقاه بوجهها هذا القاسى الجامد ٠٠ ويتصاعد الضباب امام عينيه فيغلق على نفسه منابت التساؤل والحيرة ويلقى بنفسه الى دفاع الحياة ٠

عاد محمد فى يوم من المدرسة وهو يحس رعشة تهز جسمه جميعا فاسنانه تصطك فتصك جسمه كله كانها المطارق واطرافه ترتعش رعشة تهز كيانه فهو كنبات هش ضعيف انصبت عليه ريح عاتية توشك ان تقتلعه من الجذور ٠

وتلقته الحاجة بمبة باشفاق وراحت تضع عليه الاغطية وتحيطه بزجاجات الماء الساخن ولكن الرعشة لا تريم عنه فكانما هى فى مكان خبىء من جسمه لا يدرك مكانها الماء الساخن ولا يصل اليها دفء الغطاء ٠

واقبل الحاج والى من الخارج فوجد ابنه على حاله هذا فهو يسارع الى البندر ويجتلب الطبيب الذى يقرر ان الطفل قد اصيب بالتهاب رئوى حاد وحين يسأله الحاج والى :

- اخطر هذا المرض ؟

- كل الخطورة ٠

- وماذا نفعل ؟

- الاعمار بيد الله ٠

الاعمار ٠٠ وهل بلغت الحالة الى ذكر الاعمار ٠٠ الاعمار ٠٠ اكل ماكان ينتهى الى هذا ٠٠ أكانت الحاجة بمبه تخطب لى وكان موت صالحة المسكينة من اجل الالتهاب الرئوى ٠٠ اهو الذى يحصد ثمرة ماضحت به المرأتان الطيبتان ٠٠ امن اجل هذا يأتى الاطفال ٠٠ ولدى٠٠ ماذا ٠٠ ماذا انت فاعل بى ٠٠ اهذا املى بعد ان تحقق ٠٠ اكان قد تحقق من اجل الالتهاب الرئوى ٠٠ ايرضى الله بهذا ٠٠ نعم يرضى ٠٠ فما هذه الدنيا بالتى يجزى الله فيها المحسن خيرا والمسىء شرا

الم يمت ابراهيم بن محمد رسول الله.. وحيده .. مات طفلا .. فلماذا لايموت محمد بن والى ، وما محمد بن والى ، فى حساب الدنيا .. مجرد روح صغيرة ولم تتفتح بعد للحياة ، وما والى .. شقى من الاشقياء قطع عمره على امل ان يكون له طفل حتى اذا كان جاءه الالتهاب الرئوى .. وفى الآخرة يتولى الله ثوابه ولكنى بشر .. لقد صبر النبى على بلواه .. اترى أصبرانا .. يارب اننى اصغر من هذا الامتحان وانت تدرى انت تدرى اننى اوهى عظاما واقل صبرا من ان احتمل هذا الابتلاء .. يارب انك تقول المال والبنون .. وتقول لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين.. فليكن ابتلاؤك فى المال .. كل المال .. اما البنون فما عندى من بنين الا محمد هذا فدعه لى .. فما انا بالذى يصبر لهذا البلاء .. انى اعلم وانك تعلم اننى اقل من هذا البلاء .. يارب .. يارب .

كان الدعاء والدواء والصبر هو كل ما يملك الحاج والى . وكانت الحاجة بمبة هى التى تقوم بتمريض الطفل فى حنان واناة وامتثال تكاد لا تذكر الا انه ابنها فما عرفت لنفسها ابنا الا بالتبنى وما عرف هو اما الا هى .

وفى بطء شديد شفى محمد وعادت الابتسامة الى الحاج والى وعاد النوم الى الحاجة بمبة .. احس الحاج والى سعادة .. سعادة لم يعرف لها مثيلا فى حياته ما احلى ان يكون لى ابن يحيط به الخطر ثم ينجو .. كأنما اصبح لى ولد جديد.. انهم ليمدون قلوبنا بالسعادة والجدة هؤلاء الاطفال .. لا .. لاشىء يعدل ان يشفى ابنى من مرض خطير .. لا .. لاشىء يعدل هذا فى الوجود .

وواجهت الحاج والى مشكلة اخرى.. أيعود محمد الى المدرسة فيتعرض للبرد مرة اخرى وللمرض.. وسرعان ماحسم المشكلة .. فماذا يصنع محمد ان لم يذهب الى المدرسة .

ومن جديد عاد الحاج والى يوقظ محمد فى الفجر فيصليانه جماعة ثم ينفتل محمد الى مدرسته ليواجه البرد الشديد والحر الشديد والعلم الثقيل .

- ١٤ -

كان زين العابدين جالسا فى شرفة داره ينتظر عربته ان تعود من المحطة حاملة حماته وحماه الذى ابرق اليه انه قادم فى يومه هذا .

وكان زين العابدين سعيدا فى انتظاره هذا فقد تولت ثلاثة كلاب او كلبان وكلبه تسليته بتمثيلهم امامه قصة الثلاثى الخالد الزوج والزوجة والعشيق وقد اندمج ثلاثتهم فى ادوارهم اندماجا انساهم المتفرج الوحيد زين العابدين .

وقد اختارت الكلبة دور المنتظر لا تجنح بعواطفها او تصرفاتها جنوحا ينبىء عن حقيقة مشاعرها بينما راح الكلبان يعتركان ويتجه كل منهما الى الكلبة كلما خيل اليه انه بلغ من عدوه ما يشتهيه له من هزيمة فما يلبث الآخر ان يلحق به فى منتصف الطريق يرده عن الكلبة ان يصل اليها . ولم يكن زين العابدين يعلم اى الكلبين هو الزوج وايهما العشيق فانهم فى دنيا الحيوان يتقاربون فيختلطون ولكن زين العابدين رأى فى عينى احد الكلبين ذلة وانكسارا ورأى فى عينى الآخر توقحا وجرأة وكاد يعرف من هذه النظرات حقيقة كل منهما الا انه عاد فاختلط عليه الامر لايدرى

مدى ما اصابه من صدق النظرة وقوة الاستنتاج · واستطاع احد الكلبين ذو النظرة المتفحمة ان يصل الى الكلبة آخر الامر · واستقبلته العاهرة استقبالا حارا جعل الكلب الاخر الكسير النظرات مذهولا محجما عن محاولة كان قد بدأها ليرد الكلب المنتصر وكانما اصاب هذا الترحيب من الكلبة كبرياءه فهو ينعم النظر حينا وتبدو عليه الوان من الحيرة والذلة والرغبة والزهد ، ثم يولى الكلبين والمتفرج ظهره وينصرف عن المسرح جميعا ·

ولو كان للمسرح ستار لاسدل على الكلبين الآخرين فان الرواية كانت بلغت ما يجب عنده ان تتخفى شخوصها بين الكواليس ولكن زين العابدين ظل يرنو الى الكلبين متشوقا الى القاهرة وصديقته الجديدة سنية شخلع حسيرا فى الوقت نفسه لقلة المال معه ، اسيفا انه لم يعد يستطيع ان يبيع اكثر مما باع فقد تضاءلت ارضه فأصبحت اربعين فدانا وما يستطيع بعد ذلك ان يبيع منها شيئا ولا يستطيع كذلك ان يواجه ما تحتاجه سنية من مصاريف ولا هو مطيق ان يهجر سنية او البار فهو فى دوامة من الحيرة يتخبط بين جدران من خوف الفقر وبين الرغبة العارمة فى بقاء محبوبته ومن قلة الارض لا تستطيع ان تكفل له ما يكفى رغباته ولا تستطيع ايضا ان تتضاءل اكثر مما تضاءلت · وقد كانت حيرته هذه قديمة ليس للكلاب فيها شأن الا تذكيره بحقيقة تسيطر عليه اغلب الوقت وقد كان بقاؤه بالقرية اكثر ما يضيق به ولكنه لا يملك الا ان يبقى بها وان كان هو لايتولى زراعة الارض بنفسه بل يؤجرها الى الفلاحين فاشرافه على المستأجرين اشراف هين لايستغرق من وقته الا اقل وقته ثم هو يفرغ بعد ذلك الى هذه الحيرة وهذا الضيق بالقرية وهذا الشوق اللاهف للقاهرة وسنية والبار ·

افزع الكلبين العاشقين صوت العربة وهى تأخذ موقفها امام البيت، وانتبه زين العابدين وهو يستقبل زواره فى حفاوة وتوقير ، فقد كان يعلم ان حماه وحماته لا يحبان شيئا فى الدنيا اكثر من ان يلاقيا التوقير اينما ذهبا · وتقدم زين العابدين من العربة وامسك بيد حماته ، ينزلها منها · سيدة فى الخمسين من عمرها ولكنها تتخذ من الملابس والحجاب ما يجعلها فى الستين فوشاح ابيض يحيط برأسها وخمار شفاف يدور حول اسفل وجهها الوردى اللون الذى ماتزال اثار نضرة تتخايل فيه وبين الوشاح على الرأس والخمار على الفم تطل عينان فيهما طيبة وفيهما ذكاء وفيهما حب سيطرة لاتجد مجالا ولا متنفسا · اما قوام الست ازدهار الناضورجى فكان معتدلا لايتهم بنحافة ولا يعاب بافراط سمنه · ونزلت ازدهار هانم وتبعها زوجها زكى بك الناضورجى و هو شارب يلقى منه كل رعاية وتكريم ، احمر الوجه قصير القامة اصلع الرأس حتى لايفلح الطربوش الاحمر الزاهى فى اخفاء صلعته جميعا انما تظل قطعة كبيرة منها بادية من مؤخرة الطربوش حيث ينسدل الزر فى نظام واحكام · وكانما كانت هذه القطعة من الصلع تغافل الطربوش فتخرج الى العيان دون ان يشعر بها ·

وقبل زين العابدين يد حماته وانحنى وهو يسلم على حميه انحناءة لاتخطئها

العين وشـــاعت فى عينى ازدهار هانم علائم رضى وهومت ظلال ابتسامة عـلى شارب زكى بك واخذ الجميع ســـبيلهم الى الطابق الاعلى • وثمة استقبلتهم بهية فى ترحاب تحيط به كثير من القيـــود فلا يبدو الا فى تقبيلها ليد ابيها ويد امها ووجنتها وان كانت فى دخيلة نفسها تريد ان تحتضن كلا منهما وتقبله قبلات كثيرة عارمة ، وكأنما كانت آمال مطلعة على ما فى نفس امها فهى تهاجم جـدها وتتعلق برقبته ويقع طربوشه على الارض ويتخلج وهو فى وقفته حتى ليوشك هو أيضا ولكنه يتماسك وهو يغالب الضحك على فمه محاولا بكل جهده أن يجعل من ابتسامته كشرة فلا يفلح جهده ، وتتركه آمال الى جدتها فما هى الا ضمة واعتناق حتى ينتهك ستر السيدة الوقور فالخمار فى الارض والوشاح فى منتصف الرأس والسيدة غير غاضبة ولا عاتبة وكأنمـا كانت تشتهى هى ايضا هذا اللقاء من ابنتها فأجابت حفيدتها خوافى رغباتها وبهية تحاول ان ترد الابنة العابثة فلا تحفل بها وزين العابدين ينظر فرحان رأى طربوش زكى بك الناضورجى على الارض لاول مرة فى حياته ، فهو لم يره قبل اليوم الا منتصبا على رأس صاحبه لايميل ولا يحيد مثله مثل شارب زكى بك نفسه • ثم ها هـو ذا اليـوم يرى الطربوش فى الارض والشارب مهوشا من اثر تقبيل آمال ، وتعربد فى نفس زين العابدين ضحكة لامبـــاليه تذكره بالبار وسنية شخلع وهو يرى زكى بك ينحنى فى وقار الى الطربوش يلتقطـــه مختلسا النظر الى زين العابدين كأنما كان يريده ان يلتقطه هو بدلا منـه أو كأنما يريده ــ على الاقل ــ ان يبـــدو وكأنه غير منتبه للطربوش الســـــاقط وانحناء البك الكبير لاحضاره •

وتنتهى معركة الاســتقبال ويجلس الجميع ويدور الحديث ولكن لايكاد فان زكى بك يقول فى امر حازم :

ــ زين العابدين بك •• انا ســآخذ ابنتى وحفيدتى معى الى مصر •

وتعجب زين العـــــابدين وقال فى دهشة :

ــ نعم •• لماذا •• لماذا ياســـعادة البك ؟

ــ البنت كبرت ولابد لها ان تدخل المدرسة •

وصمت زين العابدين فان هـذا حق لاسبيل الى التغاضى عنه ، وهو لايريد لها ان تتعلم تعليما مشوها ، كما ان وجود ابنته فى القاهرة يجعل ذهابه اليهـــا مقبولا امام نفسه على الاقل ولكن لماذا تذهب زوجته •• نعم •

ــ ولماذا تذهب بهية ؟

ــ لتمكث معها فترة حتى تتعود على المدرسة •

واطرق زين العابدين وقال زكى بك:

ــ زين العـــابدين بك •• هل انت مشغول هذه الايام هنا ؟

ــ انا •• لا •• ابدا •

ــ اذن تذهب انت ايضا معنا وتدخل ابنتك المدرسة وتتنزه فى •••

وقطع زكى بك جملتـــه وتنحنح ثم استطرد فى لهجة جادة صارمة كأنهـــا لا تعنى شيئا على الاطلاق •

ـ اظن انك لا تمانع ·· هيـــه ·· لامانع ·· هيه ·

واطرق زين العابدين وكانه يمتثل لامر لاسبيل الى التخلص منه ·

ـ امرك ياسعادة البك ·· لا مانع ·· لامانع ·

ـ ١٥ ـ

ثلاث سنوات مرت بحسين فى القاهرة ·· ثلاث سنوات يذكرها وهو مستلق على سريره بجوار قطة تلوذ بيده الحانية عليها فى غرفته المنفردة مثله على سطح بيت ساقته اليه عجلة زين العابدين بك وابقاه فيه خوفه ان يواجه البحث عن بيت جديد ، فقد كان يخشى ان يلقى من القرية اكثر مما لقى والحجرة عرفها لمدة يوم ثم اسبوع ثم شهر احب اليه من اخرى مهما تكن تفضلها لم يعرفهـا قط ·· لا ·· لايريد أن يوغل فى الاغتراب اكثر مما اغترب ، فهو يبقى فى الغرفة، باردة فى الشتاء حارة فى الصيف لكنه الفها والفته وقل ان يجد شيئا يألفه فى القاهرة الكبيرة الواسعة المترامية الاطراف ومع الايام التى اصبحت شهورا فسنين أأصبحت هذه الحجرة على السـطح ملاذه ومأمنه هرع اليها هالعا من القاهرة فأمنت خوفه واقرت مضـطربه واستراح بين ضلوعه قلب مفزع شديد الوجيب عاصف الضربات · ليس ينسى يـوم فزع الى غرفته هذه فى ذلك اليوم المشـئوم من ايامه الاولى فى القاهرة يوم نزل مزهـوا بجبته وقفطانه وحذائه اللامع يتبختر فى الشوارع يزين لنفسه ان يتفرج عـلى القاهرة معتقدا ان الاعين فيها جميعـا سوف ترمقه بالاجلال والاكبار · وسـار على غير هدى وراح يتلفت حواليه اينمـا سار محاولا ما وسعه الجهد ان يرى اثر قفطانه وعمامته الزاهية على من يمر بهم من الناس حذرا كل الحذر ان تنحدر هذه الدمعة التى لاتترك عينه فهو يمسـح خده سواء لديه كانت الدمعة منحدرة أو كان مكانها جافا لا أثر للدمع فيه · وتعود اليه نظرته توهمه ان العيون تتبعه وان كان هو فى بعيد نفسه يعلم ان ماتلقيه اليه نظراته وهم لا يتصـل بسبب الى الحقيقة · فالناس منصرفون عنـه الى ما يشغلهم من حديث أو عمل أو لهو ، ولكنه مع ذلك يحب ان يصدق اوهامه اكثر مما يحب ان يصدق الحقيقة التى يعلمها ، فهو وقور فى مشيته ، بطيئـة خطواته قليلة حركاته الا تلك اليـد يمسح بها من حين الى آخر دمعته الحقيقية أو الموهومة لا يدرى وانمـا هى يده يرفعها بين الفينة والفينـة لاتصيب الدمعة شيئا من وقاره أو اناقته ·

وظل سائرا يتهدى به شـارع الى حارة أو حارة الى زقاق حتى انتهى به المطاف الى اصوات عالية أوضح مافيهـا ايمان مغلظة تتراوح بين ايمان الطـلاق والقسم بالله ثـلاثا ، وراح يقترب من الاصوات لان طريقه يحتم عليـه ان يقترب منهـا حتى أصبح فى مركز الدوامة ·· من الصراخ المرتفع ·

ـ وانت من ادراك بكلام الله ·· يارجل دع العلم لاهله ·

ـ اسمع الله عليـك انت يا عالم ·· اكنت من رجال الازهر انا لم ارك فى يوم من الايام تلبس العمامة ·· الا اذا كان ذلك قبل ان اعرفك ·· اى قبل انْ تولد ·

ـ يارجل ·· يارجـل اتق الله ·· زوجتى طالق ياشيخ ان لم تكن هـذه الآية من كلام الله ·

ـ تعنى انها من القرآن ٠
ـ فى القرآن ٠
ـ زوجتى طالق ثلاثا ان كانت فى القرآن او كانت تعرفه أو شافته رجلان على جانبى الطريق ٠٠ احدهما على باب وكان حوله رهط من الاصدقاء والآخر على المقهى فى الجهة المقابلة يحيط به هو الآخر رهط من المعجبين ٠ وكلا الرجلين يريد ان يكون ذا علم ٠ وحسين يمر بينهما وتختطف اذنه هذا النقاش فيسير طريقه واثقا ان الجماعة ستنشغل بنقاشها عن قفطانه وعمامته ويعبرحسين المقهى والدكان ويوشك ان يبتعد ولكن الصراخ ينقطع بشكل مفاجىء فلا يسمع حسين الا كلمة واحدة :
ـ نسأله ٠
ويعقبها صوت يصبح اصواتا :
ـ يا استاذ ٠
ويمضى حسين سبيله ولكن الاصوات تتعالى : ٠
ـ يا سيدنا ٠٠ ياسى الشيخ ٠
ويقف حسين ويتلفت وفى عينيه سؤال يريد ان يتأكد به انه هو المقصود وتتعالى الاصوات مرة اخرى :
ـ نعم انت ٠٠ تسمح لحظة ٠
ويتجه حسين الى الجمع ويبادره الرجل الجالس الى المقهى :
ـ نريدك فى سؤال ٠
ويفرح حسين ٠ فقد واتته الفرصة مبكرة ان يصبح اهل افتاء فيجلس القرفصاء معتمدا قدميه دون ان يلامس جسمه الارض موليا وجهه الى اهل المقهى وظهره الى اهل الدكان وقال وقد تمكن من جلسته :
ـ نعم ٠
ـ هل فى القرآن واذا الصحف تطايرت وانتشرت ؟

ويقول حسين فى وقار وثقة :
ـ لا ٠٠ انما يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « واذا الصحف نشرت ، واذا السماء ٠٠٠ »
ولا يكمل الآية وانما هى ركلة عنيفة فى ظهره ترفعه الى اعلى قليلا ثم تهوى به على الارض منكفيا على وجهه عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن فى اذنه :
ـ الم يبق الا العيال نسألهم فى كلام الله ٠٠ وانت ماذا تفهم فى كلام الله يا ابن الكلب ياصايع٠٠ قم ٠٠ قم خيبة الله عليك وعلى ابيك ٠
ويغرق الجانبان فى الضحك لمنظر حسين وعمامته ، ويقفزحسين الى عمامته حيث هى وينفجر باكيا وينتهز مكانا خاليا وينفلت منه وقد علا بكاؤه تملا نفسه الحسرة ويروح يعدو وقد احست نفسه الظلم مريرا خانقا يزيده الرعب مرارةوخنقا لايجدمتنفسا منه الا الدموع والنشيج ٠
وراح يعدو لايدرى الى اين وانغلقت عليه المسالك فاصبح لايدرى كيف يصل الى حجرته فيقف وينظر الى حاله وينظر الى خلفه حتى اذا استيقن انه غير متبوع راح يتحسس طريقه الى الحجرة حتى بلغها وحين دخلها وعاوده الامن وان لم تفارق نفسه المرارة ٠٠ احتضنته الغرفة ذلك اليوم ووجد فيها مأمنا ووجد فيها انيسا ٠٠ هى هذه القطة التى عرفها أول ما عرفها فى ذلك اليوم وكانما جاءته ليشكو اليها ماوقع له ولتشكو هى اليه الجوع والتسكع ، كان هو وحيدا بغرفته وكانت هى وحيدةبجوعها والتقى الاثنان وبدأت بينهما فى ذلك اليوم صداقة ما تزال مشدودة الاواصر حتى يومه هذه لا ٠٠ لا ينسى حسين كيف كانت هذه الغرفة مأمنا له من الفزع وكيف صارت

الفطة انيسا له من الوحدة .. وليس ينساهما ايضا فيما وقع له بعد ذلك من ظلم .

كان ذلك بعد اقامته فى القـــاهرة ببضعة شهور وكان الازهر قد اتاح له بعض صداقات . وكان اقرب الاصدقاء اليه فتى من القرية المجاورة لقريته سبقه الى القاهرة بسنة واستطاع ان يجد عنده ما يحب من حديث عن اماكن واشخاص يعرفها كلاهما هذا الحديث الذى يذيب الوحشة ويثير الحنين ويشعر الانســـان بدفء الحياة فى ظلال بلدته وعلى وديانها وحقولها وتحته النخيلات هناك وعـــلى ضـــفاف النهيرات ذلك الحديث الذى لا يجده حسين فى القاهرة الا حين يلم به عمه الحاج والى وقليلا مايفعل ثم هو لا يستطيع ان يفيض معـــه فى الحديث افاضة الصديق الى صديق . وانما هى اسئلة يمنعها الاجلال ان تكثر ويعوقهـا الخجل ان تصل الى التفاصيل . اما حين يتحدث حسين الى صـــديقه حمـــدى فالذكريات المشـــتركة ، والاماكن التى يعرفها كلاهما والاشخاص الذين تربطهم بهما صلات الملعب والكتاب . فقد كان كتاب القريتين واحدا . وهكذا توطدت الصداقة بين حسين وحمدى ، وأصبح حمدى مرشدا لحسين فى القاهرة . وصار حسين يبتعد عن حى الدراسة مطمئنا الى خبرة حمدى ومعرفته بالطرق فهو يزور احياء القاهرة معتمدا فى السير عـــلى رجليه وفى معرفة الطريق على حمدى . حتى كان يوم زارا فيه حديقة الحيوانات واتما زيارتها وارادا العودة وكان التعب اخذ منهما اخذا وبيلا . فقد قضـــيا يومهما جميعه سائرين وقال حسين :

ـ تركب الترام ؟

ـ نركبه .. لكن اسمع .. اتريد ان تركب ام تريـــد ان اجعلك تتنزه نزهة أخرى .

ـ انا متعب .

ـ انها نزهة مريحة .

ـ كيف .

ـ نركب سلم الترام بدلا من الترام نفسه فنكسب مكسبين الاول اننا سنكون خارج الترام لنتفرج على الشـــوارع التى سنمر بها فرجة لانستطيعها من داخـــل الترام اما المكسب الثانى فهو اننـــا لن ندفع شيئا .

ـ لا بأس .

وكان حسين قد تعلم منذ حادثتـــه الاولى الا يخرج بعد الظهر بملابس الازهر فهو يلبس طاقية ومركوبا وجلبابا . وكان حمدى يرتدى مثل هذه الملابس ايضا . وبدأ الاثنان المغامرة ولكن لم يكادا . فقد ركبا أول ماركبا تراما ذا ســـائق لا يحب هذه العادة من الفتيان فما كاد الاثنان يقفان على السلم حتى وجدحسين طاقيته تختطف عن رأسه وقبل ان ينظر الى من اختطفها كانت طاقية حمدى تلحق بطاقيته ونظرا فاذا الســـائق يضـــع الطاقيتين على المقبض الذى يمســـك به ليتحكم فى الترام وهو يقول :

ـ حتى لا تركبا مجـــانا مرة اخرى يا اولاد الكلب .

وراح حسين وحمدى يســـتعطفانه ولكن الرجل ظل صامتا وكأنه فقد النطق حتى اذا بلغا انحناءة شـــديدة امال السائق الترام بعنف فاذا حسين وحمدى على الارض وقام كلاهما يجرى ولم يكن الترام فى سرعته الكاملة فهما يعـودان بجانبه يستعطفان السائق ان يرد اليهما الطاقيتين ولا يجيب ويخشيان ان يثبا

مرة اخرى الى السلم ان يضربهما الرجل الصارم • وزاد الترام من سرعته وزاد الاثنان من سرعة عدوهمـــا ، وينفلت المركوب من رجل حسين ويستقر عـلى شريط الترام وتمر عليـــه العجـــلات الحديدية فاذا هو نصفين ويقف حســين ويضطر حمدى للوقوف • كانت المصيبة واحدة فصارت مصيبتان والطاقية مهما تكن من الوبر غالية الا انها على اية حال ارخص من المركوب • ويمسك حســين ببقايا المركوب بين يديه والترام يبتعد عنهما بالطاقيتين وينظر حســـين الى حمدى :

ـ ارأيت شـــورتك •• نتفرج ولا ندفع •

ويضع حســين فردة المركوب تحت ابطه ويمســـك بالمركوب الآخر الممزق ويقطع الطريق حافيا حريصا ان يميل الى كل محل احذية يلاقيه كبيرا كان أو صغيرا يسأل الواقف به سؤالين :

ـ ايمكن اصلاح هذا ؟

لا •

ـ ايمكن ان تبيع لى فردة واحدة ؟

وقد يجيب المسؤول بلا ســاخرا أو يجيب بطرده هو وصاحبه فى صـــلف وكبرياء •

ـ ويصل حسين الى غرفتـــه ويقفل الباب ويرتمى على فراشـه ويبكى •• وتثب القطة الى جانبه فيمد اليهـا يده بغير وعى ويمسح على ظهرها وتنحـدر الدموع من عينيه •

كانت الحجرة فى ذلك اليوم ملاذا له فى بؤسه وشقائه •• فهو اذن لايريد ان يتركها فقد الفها والفته •

والف أيضـا أهل هذا البيت • فان زوجة صاحب البيت وهى شابة فى ريق العمر كثيرا ماتلقى اليه نظرات فيهـــا عطف وفيها انتظار لشىء لم يكن حسين يدرى ماذا تنتظر ولكنه كان يحس ان هناك شيئا تنتظره هذه الفتاة •• ولكن الايام فى مرورها البطىء جعلته يعرف ان هناك ما تنتظره امرأة من رجـــل وما ينتظره رجل من امرأة • وحين بلغ اليوم الذى يعرف فيه هذا الشىء كان يقول كلما تذكر الست مفيدة اعوذ بالله من الشيطان الرجيم •• اعوذ بالله من الشيطان الرجيم •

ـ ١٦ ـ

مر وقت طـويل على الحاج والى لم يزر الزقازيق فانتهز فرصة وجودبعض غلال عنده يريد ان يبيعها فاخذ اهبته لزيارة البندر وسأل الحاجة بمبـــة ان كانت تريد شيئا فذكرت له ما تحتاج اليه ولم يكن ما تحتاج اليه كثيرا واخذ الحاج والى طريقه الى البندر راكبا عربته الحنطور التى كان قد طلب الى سائقهـــا ان يعود اليه بعد ان يذهب بمحمد الى المدرسة •

وفى الزقازيق لم يجد تاجر الغـلال الذى تعود ان يعـــامله فراح يشترى ما طلبته الحاجة بمبه حتى اذا انتهى من الشراء مال الى المقهى التى يجلس اليها كلما الم بالبندر وفجأة تذكر انه منـــذ زمن بعيد لم يزر محمد فى المدرســـة ليعرف كيف يسير فى الدروس• فانتهز الفرصة وقام الى المدرسة •

وكانما كان الناظر ينتظره •

ـ كنت ساكتب اليك الآن •

ـ خيرا •

ـ المدرسون يشكون من محمد •

ـ لماذا ؟

ـ لا يريد ان يكتب فى الفصل ويهمل واجباته •

وصمت الحاج والى قليلا .. اهكذا تنتهى آماله .. اهذا ماكان يصبو اليه، ايربى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها . وحين يريد ان ايربى طفلا ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها . وحين يريدان هم ثقيل كانما هو امام طبيب يعلنه بنهاية الحياة .

ـ ماذا افعل ؟

ـ اتراك لينا معه .

ـ لا ادرى .. فأنا لا أدخر له مطلبا .

ـ لعلك لو استددت عليه بعض الشيء .

ـ بل اريد ان اشتد عليه كل الشدة .. انه ابنى الوحيد ياحضرة الناظر .

ـ اعرف .

ـ وليس لى امل فى الحياة الا ان يتعلم .

ـ اعرف .

ـ ماذا لو ضربته الآن امام اخوانه .

ـ عقاب شديد لا اريد ان تلجأ اليه الا عند الضرورة القصوى .

ـ اذن .

ـ عقابا أهون من هذا .

ـ حسن .. سيسير محمد فى دراسته على احسن وجه .. وساجىء اليك كل اسبوع لاتأكد من ذلك بنفسى .. واشكرك ياحضرة الناظر .

وخرج الحاج والى عائدا الى المقهى وانتظر حتى موعد خروج محمد . وركب العربة وانتظر مع المنتظرين . وخرج محمد ، وفوجىء بأبيه فى العربة .

ـ سلام عليكم يا آبا .

ـ اركب .

وركب محمد وسارت العربة ولم ينبس الحاج والى بكلمة وظل محمد صامتا حائرا وقد داخل نفسه هلع لايدرى ماتاه فما هكذا عوده ابوه . كان يتحرق شوقا ان يدرى ما يعتمل بنفس ابيه ولكن انى له هذا وهو لا يستطيع ان يفتح حديثا يغلق ابوه ابوابه . وصار الطريق الذى يقطعه محمد مرتين كل يوم دون ان يحس طوله طويلا طويلا لا ينتهى . فقد كان محمد يحادث السائق اثناء الركوب اما الآن فهو فى صمت مطبق لا يشغله الاصوت العجلات وحوافر الخيل والخوف الراعد الذى يملأ قلبه . وأحس الحاج والى بالحيرة التى يعانيها ابنه ولكن اين هى مما يشغل قلبه من حزن والم .

ووقفت العربة امام البيت وقفز محمد يريد ان يبتعد عن نفس ابيه هذه الغاضبة ولكن اباه عاجله .

ـ انتظر .

وكأنما كانت الكلمة حبلا يمسك بالطفل الصغير فهو يقف مكانه متسمرا ويهبط الحاج والى من العربة ولا يقول الا كلمة واحدة .

ـ تعال .

ويدخل محمد وراء ابيه ويجد ان الحاجة بمبه فى بهو البيت فيلقى عليها الحاج والى تحية سريعة ويدخل الى الحجرة وهو يقول لمحمد :

ـ تعال .

وينظر محمد الى الحاجة وتنظر اليه وتقول :

ـ انت عملت حاجة ؟

وقبل ان يجيب محمد يعلو صوت الحاج والى مرة اخرى فى غضب :

ـ تعال .

ويدخل محمد الى الغرفة وتهم الحاجة ان تلحق به ولكن الحاج والى يردها فى شيء من اللين .

ـ انتظرى قليلا انت ياحاجة .

وترجع الحاجة الى مكانها من البهـــو ويغلق الحاج باب الغرفة بالمفتاح ·

ـ لماذا لا تكتب فى الفصل ؟

ويصمت محمد ·· لقد عرف الآن السر فى غضب ابيه ولكن لات حين معرفه ويصرخ ابوه فى وجهه :

ـ انطق ·

ويرتعد محمد من هول الموقف ويعود ابوه يسأله :

ـ ولماذا تهمل فى واجباتك ؟

ولم ينتظر الحـــاج والى بل ان يده كانت اسرع من اجابة محمد وانهال عـلى الطفل ضربا والطفل باهت امام ابيـــه تدور عيناه فى محجريهمـــا ويحس شيئا ساخنا يبل فخذيه ثم تنفجر عيناه بالبكاء والاب يضرب حتى اصبح لايريد ان يقف ويصرخ ·

ـ ماذا ·· امجنون انت ·· اليس لى الا ابن واحد ويريد ان يصبح ضائعـــا تافها ·

ويضرب والفتى يحيط وجهه بذراعيه والاب يضرب لا يدرى اين مواقع ضربه، ويضرب والطفل يبكى حتى صرخ الطفل أخيرا بصوت علا على صوت ابيه :

ـ كفى يا ابا كفى ·

وكأنما كانت كلمات الطفـل القليلة يدا سلطت على قلب الحاج والى فاعتصرته اعتصارا ·· كانت كلمات بسيطة قليلة ليس فيها اعتذار ولا طلب مغفرة ولكنها هزت كيانه كله حتى اوشكت الدمـــوع تطفر من عينيه ·· كفى يا ابا كفى ·· لم يقل غيرها ، فماله قد زلزل زلزالا ، وماله قد كف يده وكأنما قبضت عليها يد اخرى قدت من حديد وتنبه الى طرق زوجته على الباب ففتح لها ولم تســـأله وانما احاطت الطفل بحنانها واخـــذته وخرجت من الغرفة ·

وظل الحاج والى وحيدا ·· الهذا كنا نأتى بهم ·· لعذابهم وعذابنا ·· ومرة اخرى عاد الضباب يغشى ناظريه الا انه فى هذه المرة كان ضبابا اكثر كثافة من كل مرة ·· واخرج الحاج والى مسبحته وراح يسبح ·

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ·· سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ·

ـ ١٧ ـ

لم تكد بهية تستقر فى بيت ابيهـا حتى سارعت الى التليفون تطلب صديقة الطفولة نعيمة فقد طالت بينهما الغيبة فهى اليها مشوقة تريد ان تســـمع من اخبارها الكثير الذى تجمع عبر هـــذه الفترة المتطاولة التى لم تزر فيهـــا القاهرة · وكأنما كانت نعيمة معها على موعد ، فان عامل التليفون لم يكد يدق لها جرس تليفونها حتى رفعت السماعة واتصل صوت الصديقتين ·

وما كان التليفون الا وســـيلة لتتم الزيارة فما ان انتهى الغداء حتى كانت نعيمة فى بيت زكى بك النـــاضورجى مصطحبة معها ابنتها ناهـــد ، اما الام فسيدة فى ريق العمر عدا السمن عـلى جسمها فهو يترهل ولم تعد السنون على وجهها فهو ناضر ، ذات شعر اســـود وثغر يحتفظ لنفسه من الحياة بابتسامة كثيرا ما تصبح ضحكة رنانة تصدر عن قلب يهفو الى السعادة تخلصت من كل تفكير أو هم، لها عينان يشقان طريقهما فى الحياة بشعاع من الهنـــاءة المترعة والسعادة الغامرة ، فيهمـــا تطلع الى ما يجتلب اليها السرور والمتعة وفيهمـا قدرة ان يتجنبا كل مامن شأنه ان يزيل الابتسامة عن الفم او الســـعادة عن القلب ·

اما ابنتهـــا · فطفلة لم تزد عن عمر آمال الا انها اكثر منها حركة وحياة ، ورثت عن امها الشعر الاسود والابتسامة وقد يرد امها عما تصبو اليه بعض خجل أو حياء ، او قد يردها عمر ليس بالطفل اما الابنة فلاشيء يردها فهي تفعل ماتريد وقتما تريد حينما تريد ·

جلست الامان وسرعان ما بدأ الحديث بطيئا وانيا اول الامر ولكن ماهي الالحظات حتى تفجر الينبوع وتشـــابك الحديث كأنه غابة من الكلمات المتدافعـــة حتى أصـــبحت كل منهما وهي لا تدري ان كانت صاحبتها تسمع أو لاتســـمع · وانما كل ماتعنيان به ان يتحادثا ·

ولم تستطع ناهد ان تصبر طـــويلا على حديث الامين فما اسرع ماتمت الصداقة بينها وبين آمال ، وما أسرع ما انسحبتا من الغرفة لتخلوا الى حديثهما هـــمـــا ايضا ·

ـ ماذا تعملين في المدرسة ؟ ·

تجيب آمال ·

ـ انا لا اذهب الى المدرسة ·

ـ ياه ، وماذا تعملين ·

العب مع محمد امام بيتنا ـ هناك في البلد ·· هل عندكم بلد مثلنا ·

لا ·· ولكني اذهب الى المدرسة ، وفي البيت نغني ونرقص ·

ـ انا اتعلم في البيت ، وبعد الظهر العب الكرة ·

ـ تأتي عندنا الست عطيـــات ·· المغنية المعروفة ·· مشهورة جدا اتعرفينها

لا ·· انا اذهب الى الغيط ، واركب النورج ·· هل عندكم نورج ·

لا انا ارقص واغني مثل الست عطيات اترقصين ·

ـ انا ·· ابدا ·

ـ يا خسارة ·· ساعلمك الرقص ·

ـ وانا ساعلمك ركوب النـــورج ، واجعلك تضربين البقر الذي يجر النورج

ـ عندما ترقصين تصـــفق لك امك وابوك والزوار ·

ـ عندنا اسماعيل ابو شعبان اخذني لاتفرج عليه وهو يدير الطمبـــور ·· اتعرفين الطمبور ·

ـ الست عطيات احسن واحدة تدق الصاجات ·

ـ كان اسماعيل ابو شـــعبان يلف

ـ كان اسماعيل ابو شـــعبان يلف الطمبور وهو عاري الســـاقين فيخرج الطمبور ماء ·

ـ الماء عندنا في الحنفية ·

ـ وفي الصيف كنت اقف بجـــانب الغلة وهم يذرونها في الهواء فتطير ثم يسقط الحب وحده والتبن وحده ·

ـ نحن في الصيف نصعد الى سطح البيت وتغني الست عطيـــات وترقص وكنت ارقص معها · ويقول ابي انني ارقص احسن منها ، ولكن امي تقول انها احسن من يمسك صاجات في مصر ·

وقالت الست بهية لصديقتهـــا نعيمة :

ـ وناهد هل تذهب الى المدرسة ؟

ـ نعم ·

ـ ما اسم مدرستها ؟

ـ والله لا ادري ·· ابوها هـــو الذي ادخلها ·

ـ الا تعرفين مدرسة ابنتك ؟

ـ وانا مالي ·

ـ كيف ؟

ـ يا اختي بلا هم ·· وماذا ستعمل بالعلم ·· مصيرها تتزوج ·

احسن لهـــا ان تتعلم كيف ترضى زوجها ·

وتضحك بهية ضحكة مجلجلة وتقول:

ـ وهل تعلمت هذا ؟

ـ ترقص على كيفك ٠

وتقول بهية وبقية الضحكة مازالت عالقة على شفتيها فى شكل ابتسامة :

ـ ولكنى أريد ان ادخل آمال المدرسة٠

ـ اسأل لك عبد السميع عن مدرسة ناهد ٠

ـ واخبريني غدا بالتليفون ٠٠ قولى لى ٠٠ كيف حالك مع زوجك ٠٠ امازال مبسوطا من ضحكك ولهوك ٠

ـ الرجال اطفال ٠٠ الضحكة تجعلهم كالخراف يفعلون ماتشائين٠٠لا يؤخر لى طلبا ٠٠ طلبت منه ان يشترى جهاز ناهد من الآن فاشترى ٠

ـ وما الداعى ؟

ـ الا تعلمين انه كان متزوجا اخرى وله منها اولاد ، وانا ليس لى منه الاناهد ٠٠ ان لم احصل على كل ما استطيع منه فى حياته ضعت بعده ٠

ـ انت لئيمة ولا يبين عليك ٠

ـ لا ياحبيبتى الضحك شىء والجد شىء ، جعلته يبيع ارضا لى وسجلها فى فى المحكمة ٠٠ لا ٠٠ كل انسان يجب ان يبحث عن مصلحته ٠

ـ وهو يطيع دائما ؟

ـ ضحكة هنا ورقصة هناك وليلة انس يتم ما اريد ، وانت ماذا تفعلين ؟

ـ انا زوجى ليس له الا امال ولااعرف شيئا عن احواله الا انه رجل طيب ويفعل ما أريد ٠

ـ وهل يحب آمال ؟

ـ يعبدها ٠

ـ وهل تضحك عليه مثل ناهد ؟

ـ آمال ٠٠ ابدا ٠

ـ لا ٠٠ ناهد تعرف كيف تضحك على أبيها ، ان شافته وهو زعلان مكشر تهمس فى اذنى وتضع الحزام حول وسطها واطبل انا وترقص هى فاذا تكشير ابيها ضحك وانبساط ٠٠انتظرى حتى اجعلها ترقص لك ٠

ـ انتظرى انت حتى انادى زين العابدين وبابا ونينا ليتفرجوا عليها ٠

ـ وانا كيف اقابلهم ؟

وسكتت بهية لحظة فقالت نعيمة :

ـ اطبل لها انا من هنا وهى ترقص فى البهو ٠

وتجمعت العائلة وامرت الام ابنتها ان ترقص ولم تعترض الابنة او تدعى الخجل كانما هى راقصة محترفة تنتظر موعدها لتحيى الليلة ، وبدأ الرقص ، وراحت ناهد تتمايل فى انوثة محترفه وظهر العجب على وجه زين العابدين وقطب زكى بك بعض الشىء ، وارتسمت ضحكة طيبة على وجه ازدهار ، وفرحة ساذجة على وجه بهية ٠ وفجأة مالت ناهد برأسها الى الخلف حتى كادت رأسها ان تلامس الارض وفى غمرة الدهش صفق زين العابدين تصفيقا حارا فهو لم يتوقع ان يرى من الطفلة الصغيرة مايراه فى الكباريه ودون وعى تقدمت آمال الى المسرح وراحت تهز نفسها مثلما تفعل صديقتها الجديدة وقال زكى بك دون وعى :

ـ بنت ٠

ولكن البنت لم تسمع ، وخجل زكى بك ان يصر على منعها خشية ان يمس هذا احساس نعيمة صديقة ابنته واندمجت آمال فى الرقص مع ناهد وراح زين العابدين يصفق تصفيق الخبير محترف الكباريه وراحت امرأته وحماته تقلدانه فى تحرج ما لبث ان اصبح حماسة بينما تصاعد الدم الأحمر القانى الى وجه زكى بك فغمر وجهه وصعد الى رأسه حتى اصبحت القطعة الصلعاء التى تغافل الطربوش وتبرز للعيان من الخلف فى لون الطربوش ذاته.